من رحالة شبه الجزيرة العربية:

الكولونيل إس. بي. مايلز ويوميات رحلة في عمان

ترجمة: محمد همام فكري
مكتبة التراث العربي والإسلامي بالدوحة

ولد الكولونيل صمويل باريت مايلز (Colonel Samuel Barrett Miles) في ٢ أكتوبر من عام ١٨٣٨م (١٤ رجب ١٢٥٤هـ)، وهو ابن اللواء وليم مايلز، الذي كان يعمل قائدًا عامًا للكتيبة التاسعة التابعة لفرقة المشاة الوطنية في بومباي. وتلقى مايلز الابن تعليمه الأولي في هارو، وفي عام ١٨٥٧م (١٢٧٣هـ) المعروف بعام التمرد العام، التحق بالخدمة العسكرية بشركة الهند الشرقية، ليعمل ملازمًا بحريًا في الكتيبة السابعة لفرقة المشاة الوطنية في بومباي، وخلال فترة عمله بالهند التي امتدت إلى تسع سنوات كان يتنقل خلالها مع كتيبته في مختلف أنحاء الهند، وفي شهر سبتمبر من عام ١٨٦٥م (ربيع الثاني ١٢٨٢هـ) رقي إلى رتبة ملازم، وفي شهر نوفمبر من عام ١٨٦٦م (رجب ١٢٨٣هـ) تفتحت عيناه لأول مرة على الجزيرة العربية، وذلك عندما ذهب مع فرقته للعمل في المقيمية البريطانية بعدن[1]، وبعد عام من ذلك التاريخ كان قد دخل المجال السياسي عندما عهد إليه بتولي أعباء قائد معسكر عدن، ومساعد للمقيم السياسي في عدن، حيث بقي هناك حتى مارس ١٨٦٩م (ذو القعدة ١٢٨٥هـ)[2].

(1) The Countries and Tribes of the Persian Gulf, Frank Cass & Co. Ltd., 1966, p. 14.

(٢) قام مايلز برحلات عدة داخلية في عدن، أثناء فترة عمله بها، ويشير روبن بدول إلى ملاحظاته عن عدن، وكيف أن البدو لا يرحبون بقدوم أي نصراني إلى =

وبعد انتهاء فترة عمله بعدن كان عليه أن يعود إلى الهند، عندما صدرت الأوامر بعودة الكتيبة السابعة التابعة للبحرية الهندية إلى منطقة ديوار، وبناء على طلبه تم إلحاقه بوظيفة مساعد الوكيل السياسي في ساحل مكران في عام ١٨٧١م (١٢٨٨هـ) في الخليج العربي، وفي العام التالي تولى منصب الوكيل السياسي والقنصل البريطاني في مسقط(٣)، وفي شهر مايو من عام ١٨٧٣م (ربيع الأول ١٢٩٠هـ) تم منحه لقب ميجور في مناطق فارس والمناطق المجاورة.

وفي مسقط قضى مايلز معظم حياته المهنية مقيمًا سياسيًا في الفترة ما بين عامي ١٨٧٢-١٨٨٦م (١٢٨٨-١٣٠٣هـ)، باستثناء فترات الإجازات والمهام المؤقتة التي كان يكلف بها خارج عمان. فقد كلف بشغل وظيفة الوكيل السياسي في المناطق العربية التابعة للدولة العثمانية، وقنصل عام في بغداد، ولكن لفترات قصيرة، ثم يعود منها إلى مسقط، كما شغل في الفترة ما بين عامي ١٨٧٩-١٨٨٠م (١٢٩٦-١٢٩٧هـ)، وشغل في الفترة ما بين عامي ١٨٨١-١٨٨٢م (١٢٩٨-١٢٩٩هـ) منصب الوكيل السياسي والقنصل في زنجبار، وفي عام ١٨٨٦م (١٣٠٣هـ) شغل وظيفة المقيم السياسي بالإنابة في الخليج العربي، وهي الوظيفة التي اشتهر بها في المنطقة إلى أن انتهت جولته في بلدان الخليج ومسقط، ليعود ثانية إلى شركة الهند الشرقية ليستكمل متطلبات الترقية إلى رتبة عقيد، وبعدها تولى منصب المقيم السياسي في

= منطقتهم، ولقد لحظ مايلز أن البلاد يعمها الفقر حتى السلطان نفسه لا يملك غير عبد واحد فقط، ويعيش في بيت قديم لا أثاث فيه، ولم يكن عنده من السلاح سوى بندقية واحدة، كما وصف مايلز النساء بأنهن غير جميلات. انظر: روبن بدول، الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية، عبدالله نصيف، الرياض، ١٩٨٩م، ص ١٦٢.

(٣) تم إنشاء المقيمية السياسية في مسقط لأول مرة عام ١٨٠٠م (١٢١٥هـ) مع بداية المواجهة مع فرنسا، وقد أغلقت في عام ١٨٠٩م (١٢٢٤هـ) بعد أن مات أربعة من المقيمين الذين تعاقبوا على المنصب واحدا تلو الآخر، وبعد ثلاثين عامًا أعيد افتتاح المقيمية، وذلك كإدارة سياسية هذه المرة، في مواجهة التوسع المصري المتمثل في فتوحات محمد علي لمناطق عدة من الجزيرة العربية.

ميوار، وظل بها حتى نهاية عام ١٨٩٣م (١٣١١هـ)، ثم عاد بعدها مرة أخرى إلى الخدمة العسكرية إلى أن حصل على التقاعد من الخدمة بعد حياة حافلة بالمغامرة والاستكشاف، وفي إنجلترا بقي مايلز يجتر ذكرياته ومعارفه الجغرافية عن المنطقة إلى أن توفي في ٢٨ من شهر أغسطس عام ١٩١٤م (٧ شوال ١٣٣٢هـ) بعد أن أنجز العديد من الدراسات المهمة عن المنطقة التي ارتبط بها ارتباطًا وثيقًا.

رحلات مايلز:

قام مايلز برحلات عدة داخل عمان مدفوعًا بغريزة المعرفة وحب الاستطلاع من جهة، ومن جهة أخرى ضمن مهام وظيفته والتي كانت تستدعي جمع معلومات دقيقة عن جغرافية المنطقة والقبائل المختلفة من السكان بانتماءاتهم المختلفة، حتى إذا ما أرادت حكومة الهند استخدام هذه المعلومات وفقا لمقتضيات الأمر إزاء الأحداث يكون لدى مايلز ما يستطيع أن يقدمه؛ لذا فإن شخصية مايلز موظفًا حاذقًا هي التي جعلت منه رحالة محترفًا.

كانت رحلته إلى واحة البريمي في عام ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ) هي الرحلة البرية الأولى له في عمان الداخل، وفي هذه الرحلة اتخذ المسار الذي اتبعه من قبل هامرتون[٤] في عام ١٨٤٠م (١٢٥٦هـ)، عندما جاء للتنسيق مع القوات العمانية لمواجهة زحف القوات المصرية التي اجتاحت شرقي الجزيرة العربية.

فقد انطلق من صحار التي تقع على ساحل الباطنة عبر وادي الجزي[٥] متجها إلى الظاهرة، وهي الولاية التي تقع على الجانب الداخلي للحجر، وهي تتكون من سهول حصوية قاحلة تتخللها بعض الأودية الضيقة، وقد كانت هذه الرحلة هي الأولى له في مجال الرحلات البرية في أعماق عمان.

(٤) هو الكابتن إتكنز هامرتون الذي ذهب إلى البريمي في عام ١٨٤٠م (١٢٥٦هـ).
(٥) يعد وادي الجزي من أهم أودية الحجر الغربي، إذ يصل واحة البريمي بمدينة صحار وسهل الباطنة.



وفي عام ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ) قام مايلز برحلات عدة في مناطق الباطنة، فقطعها طولاً وعرضًا، وزار الجبل الأخضر وجعلان، واستكشف ظفار، وهي تقع في أقصى الجنوب من ولايات عمان، وهي منطقة حدودية خضراء محمية تقع على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية، وذات طبيعة تبعد كل البعد عن تلك السائدة في مسقط التي تتميز بجوها الحار الخانق، مثلما هي بعيدة عنها جغرافيًا.

وفي شهر فبراير ١٨٨٤م (ربيع الثاني ١٣٠١هـ) قام برحلة قصيرة بصحبة السلطان السيد تركي حول مسقط تضمنت زيارة بعض المناطق المتاخمة لمدينة مسقط، ولكنها كانت من وجهة نظر مايلز رحلات تجريبية أو تمهيدية للقيام برحلته التاريخية إلى وادي الطائين.

آثاره:

لقد كانت معرفته باللغة العربية ممتازة، مما أتاح له الاطلاع على التراث العربي بصفة عامة، كما كان موسوعيا ذا اهتمامات عدة[٦]، ويظهر ذلك من طبيعة مقالاته التي كان ينشرها في مختلف الدوريات العلمية، خاصة في سنوات تقاعده الأولى، حيث كان يقضي الكثير من وقته في البحث والتأليف على الرغم من أنه كان يعاني من بداية فقد بصره شيئًا فشيئًا، فقد كتب كتابه "رحلات في ينبع والطائف وجدة" وبصره ضعيف، واستمر إلى وفاته قارئًا وكاتبًا ومهتمًا بالشؤون العمانية والعربية بشكل عام. وقد خلف آثارًا جغرافية مهمة، منها:

- التقرير الذي نشر في جريدة الجمعية الملكية للدراسات الآسيوية عن أربعة أعمال عربية في تاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها، المجلد ٦، عام ١٨٧٣م (١٢٩٠هـ).

A Brief Account of Four Arabian Works on the History and Geography of Arabia, Journal of the Royal Asiatic Society, VI (1873)

(٦) الرحالة الغربيون، ص ١٩٢.

- ملاحظات على كتاب بليني "جغرافية الساحل الشرقي للجزيرة العربية"، الذي نشره في المجلد العاشر من المجلة الجغرافية عام ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ):

Note on Pliny's Geography of the East Coast of Arabia J.R.R.X.(1878).

أما أهم مؤلفاته فهو دون شك كتاب «مناطق وقبائل الخليج الفارسي» الصادر في لندن عام ١٩١٩م (١٣٣٧هـ)؛ أي: بعد وفاته بخمس سنوات، فقد عجز مايلز في سني حياته الأخيرة عن أن ينجز هذا الكتاب الضخم بسبب تردي قدرته على الإبصار، واعتلال صحته بشكل عام، ولكن أرملته أصرت على إنجاز هذا العمل ليخرج إلى النور مخلدا ذكرى ذلك الرجل وأعماله الباقية. ولقد أعاد نشره Frank Cass، مرات عدة، آخرها طبعة عام ١٩٦٦م (١٣٨٦هـ) مع مقدمة كتبها المؤرخ البريطاني الكبير جون. بي. كيلي

- The Countries and Tribes of the Persian Gulf, Vol-I & II, p.264, pp.265-643 Frank Cass & Co. Ltd.

ويتناول هذا الكتاب دراسة وافية في تاريخ وجغرافية عمان وأصول وأعراق السكان، وتأتي أهمية هذا الكتاب من كون مايلز قد تعرف بنفسه على تلك الجوانب، ولم يكتب نقلاً عن غيره، مما جعل إسهاماته في هذا المجال ذات أهمية خاصة.

ويمكن الاطلاع على العديد من كتاباته القيمة ضمن التقارير الإدارية لمنطقة الخليج العربي The Persian Gulf Adminstration Reports التي تم تجميعها في عشرة مجلدات أرشيفية Archive Editions ١٩٨٦م (١٤٠٦هـ)[٧].

(٧) قاسم، جمال زكريا: تاريخ الخليج العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، مج ١، ١٩٩٧م، ص ٢٦.



كما قام بنشر العديد من المقالات في المجلة الجغرافية التي عرض فيها جوانب من رحلاته الاستكشافية في عمان، منها:

On the Border of the Great Desert: A Journey in Oman.

The Royal Geographical Society, Vol. XXXVI, Edward Stanford, London.

ويعد تقريره الذي تضمن وقائع ويوميات رحلته عبر وادي الطائين التي قام بها في فبراير عام ١٨٨٤م (ربيع الثاني ١٣٠١هـ)، من أفضل التقارير العلمية عن واقع المنطقة الجغرافي الذي نشره في المجلة الجغرافية لعام ١٨٩٦م (١٣١٣هـ)، فقد قدم معلومات أساسية عن التركيبة الجيولوجية لجبال عمان وأوديتها مزودًا بخارطة لمسار الرحلة. كما تضمن التقرير خصائص المنطقة الجغرافية، ونباتاتها وحيواناتها ومصادر المياه والأفلاج بتفاصيل دقيقة للغاية، فقد عرف مايلز بحرصه على أن يدوّن ملاحظاته ومشاهداته بدقة وآمانة ملحوظتين.

Miles, Col. S. B. :On the Border of the Great Desert: A Journey in Oman,159-178pp.+ Map, pp.405-425. Royal G. Society/E. Stanford,1910.

وتقريره عن صحار والبريمي الذي ضمنه مقاله الذي نشر في الجمعية الملكية للدراسات الآسيوية في البنغال عام ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ) في المجلد ٤٦ تحت عنوان: "في الطريق الممتد بين صحار والبريمي في عمان".

- On the Route between Sohar and el - Bereymi in Oman Journal Asiatic Society of Bengal, Vol .XLVI, Part 1,1877.

ومقال: عبور جبال عمان الخضراء، في المجلة الجغرافية المجلد ١٨ عام ١٩٠١م (١٣١٩هـ)، وعنوانه:

- Across the Green Mountains of Oman, Geog; Jorn., XVIII (1901).

بالإضافة إلى العديد من التقارير الإدارية عن جوانب تجارية وجغرافية عن عمان، منها:

- تقرير إداري: عن الموارد والتجارة لعمان ١٨٧٦-١٨٧٧م (١٢٩٣-١٢٩٤هـ).

- Report on the Resources and Trade of Oman, Administration Report , 1876-77.

- تقرير إداري: ملاحظات عن قبائل عمان ١٨٨٠-١٨٨١م (١٢٩٧-١٢٩٨هـ).

- Notes on the Tribes of Oman Administration Report, 1880-81.

- سيرة حياة السيد سعيد بن سلطان، المعروف بإمام مسقط ١٨٨٣-١٨٨٤م (١٣٠٠-١٣٠١هـ).

- Biographical Sketch of Seyyid Saeed - bin Sultan.
Known as Imam of Muscat, Administration Report, 1883-84.

- تقرير إداري: البرتغاليون في شرقي الجزيرة العربية، ١٨٨٤-١٨٨٥م (١٣٠١-١٣٠٢هـ).

- The Portuguese in Eastern Arabia, Administration Report, 1884-85.

- تقرير إداري: ملاحظات عن رحلة عبر مناطق عمان والظاهرة ١٨٨٥-١٨٨٦م (١٣٠٢-١٣٠٣هـ).

- Notes of a Tour Oman and El Dhahirn, Administration Report , 1885-86.

- تقرير إداري: سيرة حياة السيد سعيد بن سلطان ابن الإمام أحمد بن سعيد ١٨٨٧-١٨٨٨م (١٣٠٤-١٣٠٥هـ).

- Biographical Sketch of the Life of Seyyid bin Sultan .El Imam Ahmed, Administration Report , 1887-88.



ويؤكد جون كيلي[٨] على أن مايلز هو أهم من قام بدور المقيم السياسي البريطاني في عمان، فعندما وصل إلى مسقط كانت تموج بأحداث وخلافات داخلية كبيرة، كما كانت الإمبراطورية العثمانية قد مدت نفوذها ليصل إلى منطقة شرقي الجزيرة في اتجاه ساحل عمان، بعدما بسطت نفوذها على المنطقة من الكويت إلى قطر عام ١٨٧١م (١٢٨٨هـ)، وقد تعايش مايلز مع هذه الظروف ونجح في أن يجنب حكومة الهند المتاعب مع السلطنة في مثل هذه الأجواء العاصفة دون أن تدفع ثمنًا باهظًا مقابل ذلك، بل كان يعمل في الوقت نفسه في سبيل ترسيخ الاستقرار في تلك المنطقة المفعمة بالاضطرابات.

وإجمالاً فإن الكشف الجغرافي الذي حققه العقيد مايلز، لا يقل عما حققه الكابتن ولستد من قبله، فقد اتبع خطى سلفه ولستد، وكلاهما يعد بحق من أفضل الرحالة الذين قدموا معلومات مهمة عن عمان الداخل، فهو ثاني أوروبي يزور البريمي وأول من وصل إليها من جهة الشرق، وإذا كان جون كيلي قد أسف؛ لأن سيرة حياته لم تكتب حتى الآن، إلى درجة أن القاموس القومي للسير الذاتية (Dictionary of National Biography) يخلو من أي إشارة له، فإن إنجازاته الكشفية قد سجلت اسمه في سجل الرحالة الخالدين.

يوميات رحلة في عُمان جنوب شرق الجزيرة العربية[٩]

بقلم: الكولونيل إس. بي. مايلز

في البدء فإننا لسنا بحاجة إلى القول بأن معرفتنا الحالية عن جغرافية عُمان الواقعة جنوب شرق الجزيرة العربية، وعلى وجه

(8) The Countries and Tribes of the Persian Gulf, Frank Cass & Co. Ltd., 1966, p. 15. 1.

(٩) عن المقالة المتضمنة في كتاب:

Ward, Philip: Travels in Oman on the Track of the Early Explorers, London, 1996, pp. 109-126.

الخصوص عن منظومتها الجبلية، كانت مستقاة بالكامل تقريبًا من خارطة الملازم آي. إن. ولستد[١٠] الذي نشر كتابه: «رحلات في الجزيرة العربية» (Travels in Arabia) في عام ١٨٣٨م (١٢٥٤هـ)، وقد حاز العمل الذي أنجزه ولستد على التقدير من مختلف أرجاء العالم، على الرغم من الصعوبات التي قد تعرّض لها لكونه من المستكشفين الرّواد، فإنه يستحق كل التقدير والاحترام والإطراء نظير ما سلطه من أضواء على تلك المنطقة.

ومن بين المناطق التي لم يزرها ولستد، وبالتالي لم يصفها هو ذلك الجزء من سلسلة الجبال العظيمة التي تمثل العمود الفقري لعُمان التي تقع بين مسقط ورأس الحد[١١].

وتتميز المنظومة الجبلية في تلك المنطقة بتعقدها الطبوغرافي، وعموما نستطيع القول بأنها تتكون من سلسلتين متوازيتين تشكلان امتدادًا لسلسلة الجبل الأخضر[١٢]. وتحتضنان فيما بينهما حتى منطقة قريات[١٣] واديًا خصبًا ومأهولاً بكثافة يدعى وادي الطائين[١٤] الذي يرتفع قليلاً في اتجاه شمال شرق

(١٠) ولستد: رحالة بريطاني قام هو وزميله اللفتنانت إف وايتلك برحلة في أواخر عام ١٨٣٥م (١٢٥١هـ). وبداية عام ١٨٣٦م (١٢٥٢هـ) والتقيا السيد سعيد، ويقتضي التنويه برحلة هذين الضابطين، لا من حيث أهميتها فحسب، وإنما من حيث المعلومات التي دونها أحدهما، وهو ولستد، حيث تعد هذه المعلومات من أهم الحقائق عن وضع عمان قديمًا، فقد قام بمسح بحري لحساب شركة الهند الشرقية يعد إلى الآن مرجعًا أساسيًا.

(١١) رأس الحد: هي المنطقة التي تفصل بين خليج عمان وبحر العرب في المحيط الهندي، وهي عبارة عن رأس رملي داخلة في البحر.

(١٢) تبلغ قمة الجبل الأخضر نحو ٣١٠٧م، يمتد مسافة تقدر بخمسين ميلا، وهو غني بمزروعاته لكثرة ينابيعه، وقد سمي الأخضر؛ لدوام خضرته، ولتلون صخوره باللون الأخضر.

(١٣) قريات: بتشديد الياء، تقع على بعد ٣١ ميلا جنوب شرقي مدينة مسقط على الساحل الشرقي لمنطقة الحجر الشرقي.

(١٤) ويعرف أيضا بوادي الطايين.



سمد[١٥]، وينتهي عند غبرة الطام، حيث اتخذت السيول مجرى لها بين التلال مكونة مجرى أو قناة رائعة المنظر، وتعرف الجهة المواجهة للبحر في تلك المنطقة لدى البحّارة باسم فجوة الشيطان، وكنت قد شاهدت هذه الفجوة من الخارج في عام ١٨٧٤م (١٢٩١هـ) بصحبة الملازم بلاك الضابط بالباخرة رايفلمان، الذي مات بعد ذلك للأسف في كارثة الباخرة يوريدايس، لكن لم تتح لي فرصة استكشاف وادي الطائين ومدخله، إلاّ بعد عشر سنوات من ذلك الوقت[١٦]؛ نظرا للصعوبات التي كانت تواجهنا.

الاستعداد للرحلة:

في شهر فبراير ١٨٨٤م (ربيع الثاني ١٣٠١هـ) كنت قد أتممت الترتيبات اللازمة للرحلة[١٧]، وكان صاحب السمو السيد تركي بن سعيد (سلطان مسقط) قد كلّف السيد ناصر بن محمد البوسعيدي بقيادة الحملة، وكان مرشدنا ورفيقنا فيها هو الشيخ ناصر بن غريب الجابري، الذي تم تكليفه لمرافقتنا في اليوم التالي وحارسنا إلى منطقة حطاط.

(١٥) تدعى أيضا صمد، وهي من أودية الحجر الشرقي، تقع عليه العديد من القرى، منها: علو، والروضة، وخضر، وشريعة آل بوسعيد. ويكون الوادي في مجمله جزءا من الحدود بين المنطقة الشرقية والحجر الشرقي. لوريمر: دليل الخليج، القسم التاريخي، ج٦، مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر، ١٩٦٦م، ص ٢١١٥. انظر سلطنة عمان مقدمة جغرافية، ١/٢٩٤.

(١٦) ليس من شك في أن موقف الأهالي من عمليات التوغل الأجنبي التي كان يقوم بها الرحالة والمستكشفون الأجانب في بلادهم بأي شكل من الأشكال لم يكن مقبولاً منهم، وأن ذلك كان أحد العوامل التي أدت إلى تعثر البحوث والاستكشافات العلمية، هناك غير أن ذلك لم يكن العامل الوحيد في اتخاذ هذا الموقف من جانب الوطنيين؛ ذلك لأن الأساطيل الأوروبية البرتغالية والأسبانية والهولندية وبخاصة الإنجليزية، اتخذت في سبيل تحقيق أطماعها مواقف عدائية ضد أبناء الخليج وجنوب وشرق الجزيرة العربية بل والبلاد الإسلامية عامة، جعلتهم لا يأمنون مجيئهم.

(١٧) الجدير بالذكر أن مايلز قام في نوفمبر ١٨٩٣م (جمادى الأولى ١٣١١هـ) بزيارة لظفار على سفينة صاحبة الجلالة «فيلوميل» بهدف جمع بعض المعلومات عن الساحل الجنوبي لجزيرة العرب حتى رأس ساجار. لوريمر: دليل الخليج، القسم التاريخي، ج٢، ١٩٦٦م، ص ٩٠٤.

الرحلة الأولى: حول مسقط

في صباح يوم ١١ فبراير (١٤ ربيع الثاني) جهزنا الجمال، وغادرنا مطرح(١٨) عن طريق وادي الحرمل الواسع والضحل، ويعرف أيضًا بوادي روي وبعد أن تجاوزنا حصن الفلج(١٩) وقريةَ روي، التي هي إحدى بساتين سوق مسقط(٢٠)، ننحرف يسارًا صاعدين وادي عُدي، وهو واد متعرج أو ضيق، طوله نحو ٤ أميال، منحوت في التلال، ويؤدي إلى سهل صغير يصفي له بعض مائه، اسمه سيح حطاط، وهو حوض أو فتحة بين التلال العالية شديدة الانحدار، من وراء مسقط.

يتكون الوادي من مسطح صخري غير مستو ومتعدد الألوان، ومسطحاته شبيهة بالجدران التي تكشف مزيجًا فريدًا من التراكيب الجيولوجية، ويتفرع الوادي إلى قسمين عند مخرجه من التلال، مكونًا مجريين مائيين والسيول الناتجة عن الأمطار الغزيرة لا تصب فقط في وادي حرمل، ولكن في مجرى الماء الذي يجري قريبًا من الوطية(٢١)، نصل إلى البيرين التي تقع على بعد عشرة أميال من مطرح، وهي قرية صغيرة تابعة لقبيلة بني وهيب، وسميت بذلك لوجود ينبوعي مياه ينبعان من الصخور الصلدة يتدفقان بغزارة، ومن هذين الينبوعين تم إنشاء فلجين جديدين وهما مجريان لنقل المياه

(١٨) مطرح: أكبر مدن سلطنة عمان، وأهمها من الناحية التجارية، وهي تقع على الجانب الجنوبي الغربي من خليج مطرح بعد ميلين، كان بها الباب الكبير، وهو سور المدينة القديم، ويرجع بناؤه إلى القرن السابع عشر الميلادي.

(١٩) تقع قرية بيت الفلج على مسافة ١,٥ ميل من مدينة مطرح، فيها مزارع نخيل صغيرة تروى بوساطة الفلج، وفيها حصن للسلطان يأتي ليعيش فيها في مواسم الحر. لوريمر: الجغرافي ج١، ص ٣٢٢. والمعروف أن السيد سلطان بن أحمد بناها لحماية مدخل الطريق إلى مطرح ومسقط. محمد مرسي عبدالله: إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ٢٠١.

(٢٠) شهدت حروبًا دامية بين البوسعيديين والسعوديين في مستهل القرن التاسع عشر الميلادي. انظر المخطوطة العمانية لابن رزيق ص ٥١٦. روي حاليا من المدن العصرية التي تضم موقع الميناء والأحياء التجارية.

(٢١) من أهم معالم الوطية حاليا الاستاد الرياضي والمدارس والمستشفيات.



تحت الأرض بغرض استخدامها في ري المزروعات، ومياهها عذبة ومتواصلة التدفق لذا أنشئت المزارع والحدائق الغناء، وهي الآن مزدهرة وذائعة الصيت في مختلف الأرجاء، كما أنها تحتوي على أشجار النخيل ومختلف أشجار الفاكهة، ومحاصيل الحبوب.

وفيها برج شاهق لا غنى عنه لتلك المنطقة مشيّد بالقرب من مستوطنة يسكنها العرب، وتكمن أهمية ذلك البرج في أنه يؤمن حاجة المنطقة من المياه، حيث إن عدم وجوده سوف يجعل إمدادات المياه تحت سيطرة الأعداء، وهو الآن قيد الإنشاء، ويقع على ربوة ليست شديدة الارتفاع، وسوف يكتمل بناؤه في فترة قصيرة، وكنت قد علمت عن هذه الأفلاج في مسقط، لذلك كنت شغوفًا لرؤيتها، وكان أحدها مملوكًا لشركة مقاصة – ذات رأس مال مشترك – يرأسها وزير السلطان الذي يملك القدر الأكبر من أسهمها، أمّا الشركاء الآخرون فكانوا من التجار الهنود «البانيان». وقد تم شراء الينبوع من أصحابه العرب تعويضًا أو تسوية، وتم الشروع في إنجاز التوصيلات تحت الأرض، ووجدت أن القنوات الرأسية للفلج قد تم تثبيتها، ويقضي هذا النظام بتوزيع مياه الري بين الشركاء بالتناسب، ويكون ذلك بالطبع وفقًا لحصتهم في الشركة، حيث يتم تخصيص الحصص بحيث يحصل الشخص على حصته من المياه كل عشرة أيام، وتوقفنا هنا للمبيت، ونحن على ارتفاع ٤٢٠ قدمًا من سطح البحر.

إن عدم وجود البرج سوف يجعل إمدادات المياه تحت سيطرة الأعداء

وتكون الطرق – غالبًا – في الأجزاء الجبلية من عُمان، على امتداد مجاري السيول أو الأودية، التي هي بمثابة الطرق الرئيسية الطبيعية في المناطق الداخلية البعيدة عن البحر، وتكون أحيانًا في صورة مجار مائية رملية القاع أو في صورة أودية صخرية ضيقة وشديدة الانحدار، وأحيانًا أخرى تكون في صورة أودية خصبة شاسعة.

الرحلة الثانية: في المنطقة الشرقية لعُمان من مسقط إلى وادي الطائين

خطط لمسيرتنا الثانية أن تصعد بنا فوق السلسلة الجبلية الشمالية والأعلى من السلسلتين التي ذكرتهما آنفًا، واتخذنا مسارنا من خلال ممر قحزة الذي هو أحد قناتي الاتصال الرئيسيتين بين مسقط والمنطقة الشرقية(٢٢) لعُمان، وقد انطلقنا في وقت باكر من الصباح؛ لأن رحلتنا النهارية ستكون طويلة ومرهقة، وسرنا في اتجاه الجنوب إلى حيث يدخل وادي قحزة السهل، ولم تكن هذه الرقعة الشاسعة من الأرض مجرد مساحة مكسوة بما هو معتاد من الأشجار الكالحة والشجيرات البرية التي لا تتوافر بكثرة في هذه المنطقة، التي قد أزيلت للأسف بسبب اعتداءات الحطّابين الذين يأتون إلى الأودية المجاورة بأعداد كبيرة للحصول على حطب الوقود لبيعه في مسقط، لكنها تحتوي على العديد من التكوينات الجيولوجية البديعة والمتمثلة في الأعمدة الطبيعية الفريدة بأحجامها الجديرة بالاهتمام، وأسطحها التي تحمل بعض الدلالات بالغة الدقة التي سوف تكون في غاية الأهمية للجيولوجيين من ناحية المكونات الجيولوجية للتلال المحيطة، ثم دخلنا وادي قحزة لنبدأ رحلة الصعود على منحدر تدريجي على أرض حصوية تخلو من الأشجار كما تخلو من المياه، وتتخللها أرض غائرة متعددة أنواع الصخور والحصى.

وبعد قليل وجدنا على يسارنا مصب وادي عمدة الذي يوجد في الناحية الشمالية لهذه السلسلة الجبلية، وفي اتجاه مواز تقريبًا لوادي قحزة، حيث يشكل مسارًا أقصر ولكنه أكثر صعوبة باتجاه

(٢٢) تقع المنطقة الشرقية على الجانب الداخلي لجبال الحجر الشرقي التي تحدها من ناحية الشمال، كما تحدها رمال آل وهيبة من ناحية الجنوب، وتطل على بحر العرب من ناحية الشرق، وعلى المنطقة الداخلية من ناحية الغرب، وتتكون من إحدى عشرة ولاية هي صور، وإبراء، وبدية، والقابل، والمضيبي، ودما الطائين، والكامل والوافي، وجعلان بني بو علي، وجعلان بني بو حسن، ووادي بني خالد، وجزيرة مصيرة.



وادي الطائين[٢٣]، إنه عمومًا طريق غير ممهد وبالغ الصعوبة، وقد علمت بأن الجزء الضيق من الطريق يتسع في بعض أجزائه بمقدار قدم واحدة فقط، حيث يحده جدار صخري من جهة ومنخفض حاد من الجهة الأخرى، وبعد أن حصلنا على بعض الراحة تحت ظلال مجموعة من الأشجار الضخمة تابعنا رحلتنا في ذلك الوادي لمدة ساعة ونصف، وكان الصعود يزداد حدّة كلما واصلنا المسير، وكان البرج يعلو موضعنا ذلك، وله قمتان عاليتان بكل جانب، وإلى يميننا توجد منطقة شبيهة بالقبعة تدعى جبل السيل، وعندما بدأنا الكفاح الحقيقي من أجل الصعود، كان المسار الملتوي يمنة ويسارًا منحدرًا بصورة مخيفة، وكان تحت موضع أقدامنا أرض وعرة وغير مأمونة، بحيث إن الجمال، وعلى الرغم من معاونتها وتشجيعها إلى الحد الأقصى من قِبَل رُكّابها العرب، كانت تصعد بصعوبة شديدة.

وعند وصولنا للقمة مساءً تفهمت مدى صدق التحذير المسبق الذي تلقيته من العرب (البدو) بشأن الطبيعة الخطرة لهذا المسار على الدّواب ذات الحمولة، حيث كان جانب الطريق منثورًا بالعظام البيضاء والهياكل العظمية للجمال التي كانت قد هوت إلى الهاوية ثم ماتت، ولحسن الحظ، لم نكن قد تعرضنا لحادثة خطيرة، على الرغم من أن خمسة من الجمال قد تعرضت للسقوط خلال عملية الصعود فأصيبت أرجلها ببعض الكدمات. ويبلغ ارتفاع عقبة قحزة إلى ٣٩٠٠ قدم، وبالمقارنة يعد جبل الطائين الواقع أمامنا عملاقًا؛ إذ يبلغ ارتفاعه إلى ٥٢٥٠ قدمًا، وبمجرد أن صعدنا إلى أعلى قابلنا الشيخ سعود بن حمد أحد أفراد قبيلة الرحبيين[٢٤] الذي كان في طريقه إلى مسقط للحصول على عفو السلطان من جناية اقترفها، حيث فتح الطريق لجيش المتمردين عندما كانوا في طريقهم لمحاصرة مسقط

(٢٣) وهو الوادي الذي يمتد من اتجاه الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي أسفل الجبل الأبيض، وهو بمثابة التل الواقع في سفح الجبل الأسود.

(٢٤) الرحبيون: مفردها رحبي، وهي قبيلة من قبائل الحجر الشرقية المعروفة.

في سبتمبر ١٨٨٣م (ذي القعدة ١٣٠٠هـ) عندما حلّت بهم هزيمة ساحقة. ومنذ قرون عدة خلت كانت قبيلة الرحبيين تستحوذ على ممر قحزة وتحتله، وقد اعتادت أن تتسلم معونة سنوية مقابل إغلاقه في وجه أعداء السلطان وقت إغارة الأعداء.

يبدو أن الالتقاء بجماعتنا لم يبد أنه مفرح جدًا للشيخ الذي كان مفرطًا في تأكيد ولائه للحكومة، وقد ألقى السلام على عجل، وهو يهبط من الممر الذي استخدمناه نحن في الصعود عند مجيئنا.

بينما اتجهنا نحن جنوبًا عبر المنحدر الضيق وبدأنا النزول إلى وادي مُغيرة، وهو ليس مجرد منحدر شديد الحدّة فحسب، لكنه كان أكثر وعورة وصعوبة من منحدر قحزة فقد كانت جوانبه شديدة الانحدار كما لو كانت منحوتة نحتًا، فالصخور كانت تتخذ أحيانًا وضعًا عموديًا ووضعا منفرج الزوايا في بعض الأحيان، موازية لاتجاه الوادي، وكانت الكتل الهلامية من الحجر الجيري الأزرق بالغة الضخامة وتشكل عائقًا خطيرًا لمسيرتنا أيضا، وكانت تتراكم بكثافة في الأرضية الصخرية، مما جعل سيرنا بالغ البطء، وعلى الرغم من تميز الجمال بالصبر والطاعة، فقد بدا لي أحيانًا أنه من المستحيل أن تتمكن الجمال من تفادي الكتل الصخرية غير المستقرة التي كانت تحاصرها من كل جانب، أو أن تتمكن من التوازن على تلك الحجارة الزلقة بفعل تأثيرات التعرية المائية التي جعلتها أشبه بالتربة المفتتة، لكن مهارة قائديها مكنتهم أخيرًا من قيادتها عبر ذلك المسار بأمان.

نباتات الوادي:

إن الحماية التي تكفلها الطبيعة الوعرة لمسار السيول، وكذلك وجود برك المياه بين الشقوق الصخرية الضخمة، جعلت الحياة النباتية في الوادي مزدهرة ومتوافرة بالقدر المناسب، حيث وجدنا بعض أنواع نباتات الطرفاء، والدِفلي، والغاف، واللبينة، وأم أصبع،



والسِدر، والسمر، وهي النباتات الأكثر وجودًا بالمنطقة والمميزة لها، كما شاهدنا بعض أنواع النباتات الأخرى التي لم تكن معروفة لدينا.

وفجأة حان موعد غروب الشمس قبل أن نتمكن من تجهيز جمالنا، فقد حلّ الظلام قبل أن نصل إلى سهل منحدر مُغيرة، الذي كنا ننوي المبيت فيه، وفي هذه المنطقة حصلنا على الماء لكننا لم نجد مكانًا آمنًا للمبيت، ونظرًا لأنه لم يكن لدينا الوقت الكافي للبحث عن مأوى مناسب، فإننا قررنا أن نشعل النار، وأخذنا نستدفئ بها، وقضينا الليلة في العراء، حيث كان موقعنا على ارتفاع حوالي ٢٠٧٠ قدمًا بالقرب من قمة ممر قحزة، وكان الجو باردًا ورطبًا؛ وذلك بسبب كثافة النباتات، ووجود العديد من برك المياه القريبة.

وفي صباح اليوم التالي، تتبعنا آثار خُطانا لمسافة قصيرة، ثم اتجهنا ناحية الجنوب الشرقي، لنبدأ رحلة الصعود إلى وادي منصح، وهو طريق رئيس واسع منحدر قليلاً، لكنه يتميز بنعومة أرضيته الرملية، مما يجعله من أفضل الطرق التي يمكن أن نسلكها فقد كان ذلك الوادي يغيص في وادي سمايل بالقرب من قرية سرور[٢٥]، وهو بالطبع بمثابة المسار الرئيس بين وادي الطائين، ووادي سمايل[٢٦].

وفي هذا الوادي كانت هنالك قريتان كبيرتان هما صُبح ونفعا، بجانب العديد من القرى الصغيرة، كما كانت تحيط بذلك الطريق بساتين النخيل الجميلة في جزئه الأكبر[٢٧].

(٢٥) سرور: قرية تتبع ولاية سمائل، ويمر بها وادي سمائل الشهير.

(٢٦) هو أعظم الوديان أهمية من الناحية السياسية في سلطنة عمان، وهو من أكبرها وأكثرها ازدحامًا بالسكان، وهو يقطع السلسلة أو منطقة الحجر الجبلية، ويقسمها إلى كتلتين: شرقية وغربية.

(٢٧) وادي سمائل أو سمايل، وهي تعني: سماء الله، وهي من أجمل البقاع في العالم، كما أنه يعد من أعظم الوديان أهمية من الناحية السياسية في سلطنة عمان، وهو يقطع السلسلة أو المنطقة الحجر الجبلية ويقسمها إلى كتلتين: شرقية وغربية، =

وفي مسقط وقبل شروعنا في هذه الرحلة، كنت قد علمت بأن طريق سمايل – منصح هو الطريق الأكثر يُسرًا وملاءمة، لكنني قررت أن أسلك طريقًا آخر أقصر منه، لكنه في الوقت نفسه كان أكثر صعوبة، وإضافة إلى أنني كنت شغوفًا بالتعرف على ممر قحزة الذي لم أشاهده من قبل، بينما كان وادي سمايل مألوفًا تمامًا لديّ.

وصلنا إلى النجد أو الأرض المرتفعة بوادي منصح خلال ساعتين، وقد شاهدنا قرية الواسط في مواجهتنا، وهي تتبع الرحبيين حيث كنت أنوي التوقف لفترة.

كان المكان المخصص لي قائمًا في بستان بديع يتألف من العديد من أشجار الفاكهة التي تتخللها الشجيرات المزهرة والنباتات الوارفة، وهنالك لم أكن قد ادخرت جهدًا للتعارف مع مجمل عناصر ذلك المجتمع، الذي كان محدودًا بالطبع، وقد جاؤوا ليشاهدوا أول زائر إنجليزي يطأ المنطقة.

في هذا اليوم اكتفينا بالسير لمسافة قصيرة جدًا بواقع ستة أميال فقط، حيث كانت الجمال بحاجة إلى راحة بعد أن تعرضت للأعياء لدى مرورها عبر ممر قحزة حتى وصلنا إلى قرية الواسط، وهي منطقة صغيرة رائعة الجمال في حد ذاتها، لكن المناطق المحيطة بها قاحلة وغير مأهولة إلى أقصى حد، وهي قائمة على منحدر محدب فوق سلسلة جبلية، وإن العين لا تقع إلا على كتل التلال القاتمة، والتي لا يوجد فيها أي أثر للحياة البشرية، وليس بها إلا القدر

= وعلى ذلك فهو يمثل مظهرًا جغرافيًا طبيعيًا مهمًا في عمان، ويظهر الوادي في نجد المغبارية التي تسمى أيضًا «قرن الدروع» التي يوصل ممر فوقها إلى مدينة عمان، ويجري الوادي في اتجاه الشمال الشرقي، ويصل إلى الساحل بمصبات عدة بجوار السيب بعد مجرى يبلغ طوله حوالي ٥٠ ميلاً، ويحمل أسماء مختلفة لأجزائه المختلفة. ويسمى جزء منه فقط بلغة دقيقة «سمائل». انظر لوريمر، القسم الجغرافي، ص ٢١١٩.



اليسير من الخُضرة. ويقيم بهذه المنطقة شيخ القبيلة مع أتباعه، ولكن من الملاحظ أنه لا توجد فيها روح القرية، حيث إن ندرة المياه لا تتيح إمكانية وجود عدد كبير من السكان. ويوجد بالمنطقة غدير ماء يتدفق ببطء من أحد الأودية الصغيرة المعزولة، وقد تم توجيهه ليصب في خزان عميق، حيث يتم سحب الماء منه بالقدر المناسب للاستخدامات المنزلية ولأغراض الري، وعلى الرغم من عدم أهميتها، فإن منطقة الواسط تشهد أحيانًا كثيرة تردد عابري السبيل والتجار وشيوخ القبائل الأخرى الذين يجيئون لزيارة شيخ الرحبيين النافذ، سالم بن حزام بن محمد، الذي كان خارج الواسط وقت زيارتنا.

في المرّات التي كانت القبائل البحرية من سكان المنطقة الشرقية قد حاولت القيام بثورة، والهجوم على مسقط بغرض انتزاع بعض الامتيازات من السلطان، أو بغرض تنحيته عن العرش لصالح أحد خصومه، فقد أصبح من الأهمية بمكان احتواء القبائل المسيطرة على مختلف الممرات الجبلية، والتي من خلالها يمكن للجيوش المغيرة أن تمر سواء بالرشوة أو بالقوة، وكانت معظم القبائل المسيطرة على هذه الممرات مثل قبيلة عقَ أو قبيلة قحزة تتلقى مبالغ مالية بصفة دورية من حكومة مسقط، من أجل الإبقاء عليها مغلقة أمام التحالفات القبلية ذات النوايا العدوانية، وأحيانًا قد يتعذر انتهاج مثل هذا الإجراء لسبب أو لآخر.

ففي سبتمبر عام ١٨٨٣م (ذي القعدة ١٣٠٠هـ) كان بعض أفراد قبيلة الرحبيين قد تنكروا للسلطان – على الرغم من أنهم كانوا يتلقون منه إعانة مالية مناسبة – إذ استمعوا لمكائد السيد عبدالعزيز والشيخ صالح بن علي، وسمحوا لخصوم السلطان بعبور ممر قحزة سرًا للهجوم عليه حين غرة، ولكن ذلك الاعتداء فشل فشلاً ذريعًا،

ويعود الفضل في ذلك إلى حد كبير إلى الدعم الذي قدمته الباخرة الحربية فيلوميل للسلطان، التي أطلقت مدافعها على المهاجمين، وهو إجراء كانت الحكومة قد وافقت عليه تمامًا، وبعد ذلك تمت معاقبة بعض المتمردين، وما زال الرحبيون وغيرهم من المتآمرين في حالة خوف من العقاب الذي يمكن أن يقع عليهم من جراء ذلك.

وفي ١٤ من فبراير (١٧ ربيع الثاني) غادرنا المنطقة صوب الطريق المتجه لوادي الطائين باتجاه الجنوب الشرقي عبر وادي واسط وهو بمثابة مجرى مائي ضحل به العديد من الأشجار والقليل من النخيل، وبعد مغادرتنا لهذا الوادي الضيق المنحدر، عبر هاوية صغيرة تقع بين صخرتين عموديتين من الحجر الجيري الأبيض، وصلنا بعد فترة وجيزة إلى قرية صغيرة تُدعى ناكسا Naksa، وهي تقع على الزاوية الناتجة عن تقاطع الواديين.

وبعد عبورها، وجدنا أنفسنا فجأة في وادي الطائين بأرضيته الحجرية، وعلى يميننا، وبعد مسافة قصيرة من سيرنا في ذلك الوادي الضيق، وصلنا إلى قرية تُدعى بُعد(٢٨)، وهي المنطقة الأكثر ارتفاعًا من بين مستوطنات قبائل الوادي، لكن أصل هذا الوادي يقع في منطقة الروثة الواقعة في أقصى الجنوب.

وادي الطائين:

نحن الآن نقف أمام أحد أكبر وأجمل أودية عُمان وأكثرها سكانًا(٢٩)، يمتد أمامنا بجماله المدهش، وهو وادي الطائين، وهو عبارة عن وادٍ ممتد باستقامة، ويقع بين سلسلتين جبليتين، ويمتد باتجاه الشمال الغربي والجنوب الشرقي لمسافة تصل إلى ٢٥ ميلاً تقريبًا.

(٢٨) بعد: تقع في وادي واسط بعد مسافة قصيرة من الضفة اليمنى لأحد فروع وادي طائين، عند رأسه، وتتميز القرية بوجود حوالي ٣٠٠٠ نخلة. لوريمر: الجغرافي، ج٧، ص ٢٤٥٢.

(٢٩) قدر لوريمر سكان الوادي بحوالي ٨٦٠٠ نسمة. لوريمر: الجغرافي، ج٧، ص ٢٤٦٧.



هذه الواحة الخصبة تضم تسعًا وعشرين قرية يسكنها الرحبيون، وبنو عرابة، والسيابيون، والهنايا[٣٠]، وقبائل بني بطاش[٣١]، والواحة يلفها العديد من مزارع النخيل، والبساتين والمزارع التي تحتوي على مختلف أنواع المحاصيل.

ومعظم المستوطنات مخبّأة بأودية معزولة وآمنة، وهي تتناثر على المنحدرات الجبلية على جانبي الوادي، بينما العديد منها يوجد على أرضية الوادي الخصبة، وتتخلل بساتينهم ومزروعاتهم تلك الواحة، وتمتد لأميال عدة، حيث يتوافر فيها الماء من خلال ما يزيد عن (٣٦٠) ينبوعًا للمياه تصب فيه، كما أخبرنا عرب تلك المنطقة، وعلى الرغم من عدم وجود نهر واسع دائم التدفق، فإن امتدادات المياه في ذلك السهل متواصلة طيلة العام وبغزارة، حيث يتدفق الماء أحيانًا على السطح، بينما يختفي أحيانًا أخرى داخل التربة المسامية لتتسرب في هدوء.

السلسلة الجبلية الشمالية من السلسلتين الجبليتين القائمتين حول وادي الطائين تعرف في ذلك الوادي باسم الجبل البيض (البياض)، وهو جبل مستوي السطح، ويبدو أنه مكوّن أساسًا من الحجر الجيري المتراكم في صورة أفقية، ويبلغ متوسط ارتفاعه ٣٠٠٠ قدم تقريبًا.

تبدو هذه التلال قاحلة وجرداء، وعلى الرغم من ذلك، فإنها مأهولة بقدر لا بأس به من السكان الذين يعملون في مجال الرعي وتربية قطعان الماعز بأعداد كبيرة، أما فيما يختص بمساكنهم فهي بمثابة أكواخ بيضاوية الشكل مشيدة من الحجارة ودون دعامات أسمنتية، وهم يعيشون على لحوم وألبان حيواناتهم، كما يعملون على زراعة بعض الخضروات والأعشاب التي يزداد الطلب عليها في ذلك الوادي.

(٣٠) الهنايا: من بني هنا، وهي قبيلة كبيرة أباضية حضرية، واسم الهناوية مشتق من اسم قبيلة تشكل حلفًا جمع بني هنا وفروعًا أخرى، انظر: عمان والساحل الجنوبي للخليج العربي، شركة الزيت العربية الأمريكية، ١٩٥٢م، ص ١٦٣ .

(٣١) بنو بطاش: قبيلة تنتسب إلى فرع الهناوي، ومقرهم في وادي الطائين.

ولقد أدت الشقوق والصدوع التي توجد في التلال إلى توافر قدر كبير من الشجيرات الشائكة وأعشاب الرعي البرية، التي تمكن قطعان الماعز من الحصول على قوتها وغذائها في أكثر المناطق صعوبة.

الحياة النباتية:

تعد الحياة النباتية في هذا المكان وفي مجمل مناطق التلال، محدودة جدًا، كما لايوجد تنوع كبير في عدد النباتات وأنواعها. وكان عالم النبات الفرنسي أوشير إيلوي[٣٢] قد قدر إجمالي عدد أنواع النباتات في عُمان، بما لا يتجاوز خمسمئة نوع، فالنباتات الشائعة هنا أهمها: الصّبار، والعشار، والسنامكي، والسذاب الفيجن، والسمر (شجرة الصمغ العربي)، والعرق سّوس، واللبينة (أم حليب)، والتوت البري، والحنظل، بالإضافة إلى السدر وغير ذلك من النباتات البرية.

الحيوانات البرية:

كما لحظنا وجود الحيوانات الآتية: الوعل العربي (تيس الجبل)، والماعز الجبلي - وكان قد تعرّف عليه مؤخرًا السيد أولدفيلد توماس، فسمي باسم مكتشفه الدكتور جايكار - والأرانب البرية، والثعالب والضباع...

وتعرف السلسلة الجبلية الواقعة على الناحية الجنوبية لوادي الطائين لدى البعض باسم جبل الحلوي، بينما يطلق عليها البعض الآخر اسم جبل سودة، حيث تشكل هذه السلسلة الجبلية نتوءًا صغيرًا

(٣٢) قام عالم النباتات الطبية الفرنسي بيير مارتن أوشير إيلوي بين عامي ١٨٣٥-١٨٣٦م (١٢٥١-١٢٥٢هـ) برحلة علمية انطلاقًا من مسقط لينتهي في وادي سمائل عابرا نزوى صاعدا الجبل الأخضر، بقصد جمع النباتات البرية، وقد نجح بعد معاناة شديدة من جمع نحو مئتين وخمسين نوعًا من النباتات، قام بإرسالها إلى متحف العلوم الطبيعية في باريس، وقد مات هذا العالم عام ١٨٣٩م (١٢٥٥هـ) بعد رحلة لم تخل من المخاطر نشرت تفاصيلها عام ١٨٤٣م (١٢٥٩هـ) في كتابه:

Relations de voyages en Orient de 1830-1838,Paris, 1843.



ينشأ عن السلسلة العظمى التي تنتهي عند منطقة إزكي[٣٣]، وربما كان متوسط ارتفاعها حوالي ٢٠٠٠ قدم، وليست لها أي قمة ذات ارتفاع جدير بالحسبان، وفي الناحية الجنوبية – التي تتداخل تدريجيًا بالصحراء – تجري العديد من المجاري المائية الضحلة مكونة الأودية، مثل: وادي عندام ووادي بني خالد[٣٤]، ووادي حلفين[٣٥].

وكلها تصب في البحر باتجاه جنوب رأس الحد. ولقد أحسن سكان هذا الوادي المفضل وادي الطائين، باستغلالهم المزايا الطبيعية للوادي وإمكانية الانتفاع منه في بناء مساكنهم الحجرية، لما يتميزون به من طاقة جبارة ومثابرة، وهم يعملون بهمة عالية؛ للاستفادة من تلك الأراضي الخصبة، ومواءمتها مع حرارة الجو في زراعة محاصيل الحبوب ومعظم الخضروات المنتجة في عُمان، فهم يزرعون الكركم، وقصب السكر، والزعفران الكاذب، والحناء.

والذي يستحوذ على اهتمام السكان هنا هو زراعة أشجار الفاكهة، والنخيل على وجه الخصوص هي الزراعة المميزة والمرغوبة في شرق الجزيرة العربية فهي تأتي في المرتبة الأولى، ويكثر النخيل في هذا الوادي بأعداد ضخمة وتنسيق مدهش. هذا وتتم زراعة النباتات المعترشة العنب، والخوخ (الدراق)، والمشمش، والسفرجل الهندي، والجوافة، والتين، والرُّمان، والبرقوق، والزيزفون، والليمون الحلو، والبرتقال، والموز، والأترُج، والمانجو، والبطيخ، والتوت بجانب النخيل، وكلها تحقق أرباحًا طائلة لأهالي المنطقة.

(٣٣) تقع على جانبي وادي حلفين، بها حصن ضخم محكم سمك جدرانه خمس أقدام، وهو يشرف على الطريق الرئيس لوادي سمايل بين الساحل وداخل البلاد. لوريمر: الجغرافي، ج٣، ص ١٠٨٧. وانظر: المخطوطة العمانية لابن رزيق ص ٥٤٥.

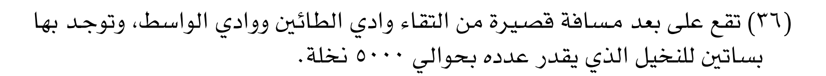
(٣٤) وادٍ في منطقة الحجر الشرقية، يبدأ من مساقط المياه بين الساحل والداخل عند طُيوى. لوريمر: الجغرافي، ج٣، ص ١٢٥٧.

(٣٥) وادٍ حلفين: من أطول الأودية في عمان خصوصا وفي شبه الجزيرة العربية بشكلٍ عام، إذ يبلغ طوله حوالي ١٨٥٦ ميلا.

ثم أخذنا نمرّ على عجل بالعديد من القرى الواحدة بعد الأخرى، وكل منها تظللها بساتين النخيل الوارفة، والماء هنا يواصل التدفق أمامنا عبر مجاريه، وكانت القرية الأولى في طريقنا هي قرية بير وبها برج مراقبة مشيّد على نتوء صخري بحيث يتيح إمكانية الرؤية الشاملة تجاه الوادي، كما أن بها مجرى مائيًا مثبتًا على أعمدة حجرية عبر الطريق، وفي هذه المنطقة يبلغ ارتفاع الوادي ١٩٠٠ قدم فوق سطح البحر، وفي زاوية الوادي توجد مدينة تدعى مسّ(٣٦) ويسكنها بنو جابر، وبها العديد من البساتين الجميلة وهي مُقحمة في وسط غابة صغيرة من أشجار النخيل، حيث تُلقي برؤوسها الظليلة عليها كما لو كانت تظللها من حرارة الشمس اللافحة. وحيث إن مرشدنا في هذه الرحلة هو الشيخ ناصر أحد أفراد هذه القبيلة، فقد وجهت إلينا الدعوة بحرارة من قِبَل السكان، فدعونا للضيافة عندهم، لكنني كنت قد اعتذرت لهم لعدم توافر الوقت لذلك.

وبجوار هذه المدينة وجدنا مدينة أخرى بها مجموعة من المساكن الجيدة، ومجرى مائي مشيد على ارتفاع ٢٠ قدمًا من سطح الوادي، وقد تم إنشاؤه لري أشجار النخيل والمزروعات الأخرى، وكان ذلك الإنجاز يدل على طموح كبير يتجاوز إمكانيات مثل تلك المنطقة، وتوقفنا عند سبال، وهي قرية كبيرة وجميلة تقع على بُعد أميال قليلة من تلك المدينة، وتتوافر بها المياه بكثرة، كما توجد ببساتينها كل أنواع الفواكه الشائعة، وقد استقبلنا عند وصولنا شيخ المنطقة ويدعى الشيخ مسعود وهو شخصية ودودة للغاية، فبعد أن رحب بنا جلسنا معًا لبعض الوقت لشرب القهوة، وتجاذبنا أطراف الحديث، ثم صحبني في جولة حول

كان ذلك الإنجاز يدل على طموح كبير يتجاوز إمكانيات مثل تلك المنطقة


(٣٦) تقع على بعد مسافة قصيرة من التقاء وادي الطائين ووادي الواسط، وتوجد بها بساتين للنخيل الذي يقدر عدده بحوالي ٥٠٠٠ نخلة.



المدينة، وكان بها عدد كبير من المساكن، وأربعة مساجد والعديد من السَبل أو «المجالس»، وخصص لنا الشيخ مسعود كوخًا متواضعًا للمبيت.

أشار الشيخ إلى عقبة عمدة، التي تقع قليلاً ناحية الشمال الشرقي، وأخبرني بأن هنالك ممرًا آخر يُدعى عقبة منقال تقع تقريبًا في مواجهة سبال، وإلى الشرق من عمدة، وذكر بأنها أكثر حدّة من حيث الانحدار من قحزة، وقد تشكلت بوساطة واديين هما تحديدًا: وادي تيما الذي يمر بوادي الطائين، ووادي السرّين في جهة قريات، وكان الشيخ ذا علم بثلاثة طرق تؤدي من وادي الطائين إلى المنطقة الشرقية، يتفرع اثنان منها من محلاحي، ويتفرع الثالث من غبرة الطام، وتوجد حركة سير كثيفة بين المنطقة الشرقية ومسقط على هذه الطرق، وتلتقي الطرق عند عقبة عمدا في السلسلة الجبلية الشمالية التي هي الممر المباشر.

ولقد اكتشفت في بعض أنحاء عمان أن قبائل معينة وبخاصة تلك التي تمتلك قطعانًا كبيرة من الجمال والحمير، قد اكتسبت بمرور الزمن وطول الممارسة، امتيازات مقصورة عليها في كل أنحاء البلاد كناقلة للبضائع، ولكن في هذا الوادي لم أسمع عن أي قبيلة تتباهى بهذه الميزة غيرهم، حيث كان جميع التجار وتجار التجزئة والباعة المتجولين من بلوش مكران[٣٧]، الذين يعملون وكلاء أو ناقلين لصالح تجار مسقط وقريات من الهنود والأوروبيين - الخواجات، حيث لم يكن الهنود والأوروبيون راغبين في المخاطرة بالسفر إلى عُمان بأنفسهم. وبعد أن يجمع هؤلاء البلوش الفواكه ومختلف خيرات

(٣٧) بلوش مكران: ينحدرون من مكران، وقد أتى أغلبهم إلى عمان منذ أجيال عدة، يوجدون بكثرة على ساحل الباطنة وكذلك في مسقط ومطرح، ويوجد عدد من مجموعات البلوش الرحل التي اندمجت مع القبائل العمانية، ولا يمكن التفرقة بينهم وبين العمانيين العرب في هيئتهم أو وضعهم الاقتصادي. انظر: سلطنة عمان، مقدمة جغرافية، الجزء الأول، ألمانيا، ١٩٨٠م، ص ٥٩.

الأرض من المستوطنات المتعددة، فإنهم يأتون بالسكر، والزيت، والأقمشة، والمعدنيات، والسلع الأخرى التي يحتاجها الناس، وذلك بالرغم من أن لكبار أصحاب المال العرب بطبيعة الحال صلات تجارية مباشرة مع البنيان[٣٨].

سبال:

اسم هذه المنطقة له دلالات معينة، ففي اللهجة العامية العُمانية كلمة سبال تعني: القرد، وهو اسم صنم شهير كان يُعبد من قِبَل العرب في عهود الوثنية قبل ظهور الإسلام، وحيث لا توجد قرود في عُمان، فلربما كان يوجد أحد المعابد المخصصة لعبادة ذلك الحيوان في سالف الزمان.

وتقع سبال على ارتفاع ١٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، وتبعد عن منطقة الواسط بمقدار ١٣ ميلاً، ولقد استغرقت رحلتنا إلى غُبرة الطام خمس ساعات، وكانت المسافة هي نفسها تقريبًا، وقد لحظنا وجود انحدار بمقدار ٥٠٠ قدم من منطقة سبال إلى غُبرة الطام حيث يتواصل الوادي بشكل التكوين نفسه كما هو بجانبه العُلوي، ويضيق حينًا، ويتسع حينًا آخر، وعمومًا فإنه كان يتسع إلى حد كبير كلما اتجهنا شرقًا، بينما لم نلحظ وجود تغيير في تفاوت ارتفاع التلال على الجانبين، والماء هنا متوافر في كل مكان، سواءً في البرك أو مجاري المياه، والعديد من المجاري المائية تتدفق من جوانب التلال لتصريف كميات المياه الناتجة عن مجرى السيول الرئيس وقت الفيضانات. وأثناء عبورنا العديد من القرى ونحن في طريقنا، كنا نشاهد المزارع تارة وبساتين النخيل تارة أخرى في أماكن متباعدة تتخللها الصخور الجرداء. هنالك اثنتان من بين مساكن بني بطاش، وهما الحدة والعقدة، وهما

(٣٨) يكون البنيان الهندوس مجموعات سكنية منعزلة، ولم يختلطوا بالسكان العرب. ويقطنون المدن الساحلية بالباطنة، وكذلك في مسقط ومطرح وصلالة حيث كانوا يتمتعون بالحماية المباشرة من قبل السلطان، وقد وفد هؤلاء الهندوس نتيجة للتعامل التجاري مع شركة الهند الشرقية البريطانية.



متقاربتان تمامًا بحيث تشكلان معًا مدينة كبيرة واحدة تمتد لمسافة ميل، وعلى الجانبين يوجد برجان للمراقبة مرتفعان يضفيان على المدينة رونقًا وجمالاً، وقد شيدا لمراقبة تدفق المياه وحركة القادمين.

وكنا راكبين في تؤدة وسلام بمحاذاة العقدة، حين اعترض السكان سيرنا فجأة من غير المتوقع، الذين كانوا - إما ذعرًا وإما لسبب آخر غير معروف - قد تجمعوا في الطريق أمامنا في هياج شديد، واستعدوا لمنع تقدمنا، مطلقين أعيرة نارية من بنادق الفتيل في الهواء وملوحين بحرابها وسيوفهم بانفعال شديد، وكان ذلك موقفًا لا يخلو من الإهانة الموجهة لنا من قبل سكان المنطقة قد أثارت غضب السيد ناصر، الذي يوبّخهم دون انقطاع مظهرًا استياءه لهذا التصرف غير اللائق، ولقد اتضح فيما بعد أن تلك المظاهرة الصاخبة لم تكن جدية بل كانت مفتعلة، وحينما بذل شيوخ المنطقة وكبارها جهودهم لتهدئة ذلك الحشد، سرعان ما هدأت العاصفة، وواصلنا سيرنا في هدوء، ولم أتعمد أن أذكر شيئًا بهذا الخصوص للشيخ شامس، شيخ القبيلة عندما قابلته في اليوم التالي، لكنه كان قد سمع عنها من البعض، فأبدى شعورًا ظاهرًا بالخزي من سلوك أتباعه، واعتذر لنا من ذلك، كما أبدى رغبته في معاقبة من تسببوا في ذلك، لكنني أشك في أنه يملك النفوذ اللازم لذلك.

قرية غُبرة الطام:

تقع غُبرة الطام في منطقة جبلية حادة، ولكنها في غاية الجمال فهي تقع على أطراف ربوة عالية تقع عند نهاية الوادي، وبذلك فإنها تشكل عائقًا لتدفق المياه الجارية، وقد تم توجيه المجرى المائي بحيث ينحرف قليلاً باتجاه الشمال ليتجه خلال السلسلة الجبلية إلى البحر، بهذه المدينة بعض المساكن الجيّدة، ويزيد عدد سكانها عن ألف نسمة من أفراد قبيلة السيابيين، وحصنها قوي؛ مستطيل الشكل وقائم على الطرف الغربي للتل، وقد تم إنشاؤه لحماية المدينة من هجمات الأعداء.

أحيانًا تشح المياه في الوادي لدرجة كبيرة، ويكون الجفاف غير المعتاد في سفح ذلك الوادي بسبب شح الأمطار الذي قد يستمر لمدد طويلة، وهو الشيء الذي يعاني منه هذا الجزء من عُمان، وقد هنأ رفاقنا بعضهم البعض لوصولهم لهذه المنطقة في مثل هذا الوقت الملائم لعبور ذلك الوادي الضيق، لكن فرحتهم كانت قد تحولت إلى رُعب وفزع بسبب سقوط أمطار خفيفة في ذلك المساء، وكانت السُحب قد بدأت تتجمع في السماء، كما لو كان ذلك نذير شؤم، ولولا أن الوقت كان متأخرًا، لواصلنا الرحلة دون توقف، فقد حلّ الظلام، ولم نجد بدًا من التوقف، وعلى الرغم من أن الجو كان ينذر بسوء الأحوال الجوية، نظرًا لشدة ارتفاع الحرارة المفاجئة، وهي دلالة على احتمال هبوب عواصف رعدية، فتوجهنا للمبيت في الأماكن التي قد خصصت لنا من قِبَل مضيفينا شيوخ المدينة، وفي حالة سقوط أمطار غزيرة كما توقع العديد منا، يتوجب علينا الانتظار في هذا المكان لحين انحسار السيول بالقدر المناسب؛ لنتمكن من مواصلة الرحلة عبر الثغرة؛ مما يعني دون شك احتمال تأجيل الرحلة لأيام عدة.

لقد كان استكشاف هذه القناة المائية هو أحد أهم الأسباب التي دفعتني للقيام بهذه الرحلة، حيث لم يصلها أيّ أوروبي من قبل، لذا فإنني قد قررت انتهاز هذه الفرصة لزيارتها رغم ما يحيطها من مخاطر، ولحسن الحظ، كان الليل قد انقضى دون هطول الأمطار التي توقعنا هطولها، ولقد جاء صباح يوم ١٦ (فبراير ١٨٨٤م/ ١٩ ربيع الثاني ١٣٠١هـ) مُظلمًا وغائمًا، ولم تسقط الأمطار، بينما كان المجرى المائي يتدفق تحت أقدامنا حتى ارتفع منسوب المياه ولكن بقدر ضئيل، وبعد التشاور مع أفراد المجموعة رأينا أنه من الأنسب مواجهة خطر حدوث تدفق فجائي للمياه من خلال الوادي والمجازفة بالمرور قبل سقوط الأمطار، الشيء الذي يبدو وكأنه أصبح واقعًا،



فقد تسقط الأمطار فجأة وبذلك قد تتجمع مياه الجداول والمجاري وتتوحد لتصب بالوادي مكونة سيلاً جارفًا، وبدأنا الرحلة مبكرًا، حيث قمنا بتحميل الجمال على وجه السرعة منطلقين عبر سهل الوادي حيث كانت المياه تتدفق بارتفاع يزيد قليلاً عن قدمين في مواجهة المدينة مباشرة، وفجأة وجدنا أنفسنا عند مدخل صدع هائل شديد الانحدار والخطورة كما لو كنا سندخل إلى مداخل قلعة بالغة الضخامة، وبحذر شديد وقفنا بلا حراك أمام جدرانها الضخمة العالية ذات الانحدار الشديد والتي كانت تقف عموديًا فوق مساحة ضيقة، كانت الجدران الصخرية الضخمة تماثل مشهد سلسلة جبلية قد شطرت فجأة إلى قسمين، بسبب انهيار أرضي ضربها من القاعدة إلى القمة، لقد كان منظرها فريدًا يخلب الأبصار، ويبلغ عرض الممر في هذه المنطقة حوالي ١٠٠ ياردة، لكنه يتفاوت في مجمله ما بين ١٥٠ و٥٠٠ قدم، بينما يتراوح ارتفاع الحواف الصخرية إلى ما بين ١٠٠٠ و ١٥٠٠ قدم حسب تقديري، ويبدو أن ذلك المجرى المائي يتدفق بسرعة تقدر بـ ٤ إلى ٥ أميال في الساعة، ويتزايد تدفقه تدريجيًا كلما تقدمنا للأمام، حيث كانت تغذيه ينابيع المياه التي تنبع من صدوع الجدران الصخرية، وطيلة فترة مرور الجمال في مناطق الشقوق هذه، كانت تخوض في مياه تصل إلى الركبة تقريبًا.

وبعد أن اجتازت الجمال هذا الموضع المهيب والغريب لمسافة رُبع ميل، طُلب منا النزول بعد أن وصلنا إلى ما يمكن أن تطلق عليه منحدرًا عميقًا يدعى العقبة[٣٩]، وهنا تم تحرير الجمال من أحمالنا وفك سروجها، ثم اقتيدت عبر شق الهاوية على الجانب الأيسر الذي يؤدي بصورة غير مباشرة إلى السهل أمامنا، بينما تم إنزال رجالنا باستخدام حبل ممتد فوق نتوء صخري ومتدل إلى سفح الوادي القائم في أسفل ذلك النتوء، ويمثل ذلك المهبط أو المنحدر القائم في

(٣٩) انظر المخطوطة العمانية لابن رزيق، ص ٤٩٢، ٤٩٣.

الصخور عائقًا خطرًا لتقدمنا حيث كان عميقًا ورهيبًا إلى حدّ كبير، وبه كتل صخرية ضخمة وشظايا من الحجر الجيري الأزرق والأبيض، كانت قد سقطت من أعلى، فزادت المسألة صعوبة، إذ شكلت عائقًا لحمولتها. كان الممر المؤدي إلى المنحدر - الذي يتوجب علينا تسلّقه - شديد الوعورة، وكان زلقًا، فضلاً عن أن الحافة الصخرية كانت ملساء بفعل التعرية المائية، بحيث تعذر اجتيازها بيسر حتى على العرب المرافقين لنا، والذين هم عادة يتميزون بمهارتهم في التسلق مثلما تتسلق القطط الجدران.

وعلى الرغم من أن هذا الانحدار لم يكن بالغ الخطر، إلا أنني كنت قلقًا جدًا، ولم يكن ذلك بشأن سلامتي فحسب، ولكن على رفاقي أيضًا، وخصوصًا على السيابيين الذين كانوا قد انضموا لقافلتنا ورافقونا من منطقة الغُبرة.

وهنا يحق لي أن أقول: إنني وطيلة فترة قيامي بالرحلات المتعددة في عُمان كنت مدينًا للعرب الذين رافقوني في هذه الرحلات والتي لولا هم ما أنجزتها، كما أنني مدين أيضًا للشيوخ الذين قاموا بتأمين سلامتي ولحماستهم وتضحيتهم بأنفسهم في بعض المرات من أجلي، فلم يحدث مطلقًا أن عبروا عن امتعاضهم للمشقة والإزعاج اللذين كنت أسببهما لهم، فقد كانوا يستجيبون دون تردد لطلباتي المتعلقة بإنجاز هذه الرحلات، على الرغم من الصعوبات التي كانت تواجهنا، كما أنهم كانوا في أي حالة عناء أو خطر يهتمون أولاً بسلامتي وراحتي؛ لأنها الأهم من وجهة نظرهم.

طيلة فترة قيامي بالرحلات المتعددة في عُمان كنت مدينًا للعرب

وفي وسط هذا الممر الذي يطلق عليه المرشدون السيابيون المخبة Al-Makuba خلدنا للراحة لمدة ساعة في انتظار الجمال، والتي على الرغم من اقتيادها بعناية تامة بوساطة ركّابها لم تتمكن من اجتياز الحافة الضيقة والخطرة في الجانب الآخر إلا بمشقة وصعوبة، ولحسن



الحظ، وصلت الجمال أخيرًا بسلام، وأعيدت الأمتعة التي كانت قد أنزلت من قِبَل العرب إلى ظهور الجمال، فركبنا الجمال لمواصلة رحلتنا.

ويبلغ المسار في هذا المكان أقصى اتساعه لكنه يضيق كلّما تقدمنا، ويصبح أكثر إظلامًا وانحدارًا، فقد كانت الجبال الكالحة تحيط بها بارتفاع حوالي ١٥٠٠ قدم، وكانت هنالك حافة صخرية تقع على الجانب الأيمن بهذه المنطقة، وتعرف باسم حيل الكبير، والتي تقع على الجانب الأيسر تعرف باسم حيل الحريم، وعندما كنا نمر عبر ذلك الصدع الهائل، كنا نصادف أحيانًا كثيرة كمًّا هائلاً من الشظايا الصخرية المتناثرة عشوائيًا على الأرض بحيث كانت تشكل عائقًا في الطريق، بينما كانت الانحدارات الملفتة للنظر تبدو فوقنا وكذلك الصخور الشبيهة بالجسور، والمظاهر الملفتة لهندسة الطبيعة، ولم يكن هنالك منفذ جانبي على امتداد الوادي، كما يوجد واد ضيق واحد يصب فيه وهو يقع على الجانب الأيسر.

ويتضح من صدوع الجدران الصخرية التي نراها في الجبال أن التركيبة الجيولوجية لها تتكون أساسًا من الحجر الجيري المتراكم ربما على صخور بركانية، وهي التي تشاهد في مسقط حيث يبرز بعضها فوق سطح الأرض متخذا شكل النتوء، أما الطبقة السفلى التي قد تعرّفنا عليها فهي بمثابة خليط، تتكون طبقته العليا من طبقة رملية يعلوها في صورة طبقات أفقية كل من الحجر الجيري بلونيه الأبيض أو الأزرق، وتبدو الصخور العليا في لون يميل للإحمرار.

وكما يفترض من الوهلة الأولى، فإن غزارة مياه السيول الجارفة - التي تكتسح سهل الوادي بين وقت لآخر - قد أدت إلى استحالة نمو الأشجار والنباتات وسط مجرى السيول، ولذلك لم نجد أي نوع من أنواع النباتات بهذه المنطقة، وحتى الفترة الطويلة البالغة ثلاث سنوات - والتي قد انقضت منذ حدوث آخر فيضان - لم ينبت أي نوع من أنواع الشجيرات أو الأعشاب وذلك بفعل التعرية.

بعد هطول الأمطار الغزيرة تكون كمية المياه المتدفقة عبر هذا الصدع هائلة، حيث يكون مشهد المياه المندفعة والهادرة مشهدًا جليلاً، وفي أحيان كثيرة كانت السيول الفجائية المندفعة تجرف في طريقها القوافل والمسافرين القادمين من منطقة قريات، حيث كانت الروافد والمجاري المائية بأعدادها التي لا تحصى تتجمع في منطقة تصريف تبلغ مساحتها حوالي ٢٠٠ ميل مربع، تمتلئ بمياه الأمطار لتتجمع في الوادي الضيق بسرعة وقوة تخلب الأبصار، لتصبح في صورة موجة هائلة لا يمكن مقاومتها، تدمّر كل شيء في طريقها.

وهي تشق أمامها منفذًا طبيعيًا لتصريف المياه المحتجزة في وادي الطائين من خلال المجاري الجبلية، في مشهد رائع الجمال بل ومن أكثر مشاهد المنحوتات الأرضية تميزًا في الجزيرة العربية، فهو يشتمل على مجرى مائي ضيق، ويبدو متعرجًا وجوانبه عمودية، يمتد لمسافة ٦ أميال في اتجاه الشمال الشرقي، والجنوب الغربي، ويتخذ طريقه عَبر صخور الحجر الجيري الصلبة التي تعرضت للنحت بفعل عوامل التعرية المائية لعصور موغلة في القدم.

إن تفرّد هذا الصدِع، والمشهد الجليل والرائع لما حوله، يظل في الذاكرة على الدوام لا تمحوه الأيام، والاسم العربي له هو وادي ضيقة، ويعني «المضيق أو المجرى الضيّق».

بلغت الساعة الواحدة تمامًا وما زالنا بداخل المجرى، وكان سيرنا بطيئًا بالضرورة عبر المنفذ الكائن بهذا الجانب الذي كان أقلّ حدة عما هي الحال بالجانب الآخر، وكانت الجدران تتراجع على الجانبين، كما يتناقص ارتفاعها كلما تقدمنا.

النقطة العليا بالجبل وتعرف لدى البحارة باسم قمة قريات، ولدى العرب باسم جبل الزعتري Alzatri، أصبحت الآن على يسارنا، وهي ترتفع إلى مستوى ٦٢٠٠ قدم، بينما كان ارتفاع الحافة



الصخرية بالجبل الواقع على يميننا بقرية دغمر[٤٠] يُقدّر بحوالي ٤٠٠٠ قدم.

وبعد أن قمنا بالالتفاف حول تل صغير، وصلنا فجأة إلى قرية مزارع، وهي المستوطنة الرئيسة لقبيلة بني بطاش ذات النفوذ الكبير، والمدينة مُحاطة بآلاف من أشجار النخيل رافعة رؤوسها ذوات الخُصّل حيث كانوا يربون مواشيهم في مزارع خصبة، وقد كان ظهورنا مفاجئًا وغير متوقع إلى درجة أنه أثار قدرًا ليس بالهين من الجلبة بين المواطنين، الذين سارعوا إلى حمل السلاح، وقحموا أنفسهم في نوبة إثارة مفتعلة تتسم بالسخف، وقد تلا ذلك إطلاق النار بكثافة وصاحبها إطلاق الصيحات لكن الزوبعة كانت قد هدأت عند ظهور الشيخ محمد، المسؤول عن هذا الجزء من القرية، والذي كان أكثرهم إصرارًا على استضافتنا وقضاء الليلة عنده، لكن السيد ناصر، كان قد همس لي قائلاً: إن هذين الشيخين الآن في حالة خلاف، ورأى ضرورة التحرك باتجاه القلعة، وبناءً على ذلك، اعتذرنا بكل لباقة للشيخ محمد، بعدم إمكانية تلبية دعوته، ثم امتطينا جمالنا متجهين إلى حيث كان الشيخ شامس بن محمد، أكبر شيوخ القبيلة في انتظارنا.

كنت قد تعرفت على هذا الشيخ الجليل النبيل منذ سنوات عدة خلت، حيث كان كثير الحضور لمسقط، وكنت أجلّه وأحترمه، وكان استقباله لنا في هذه المرّة وديًا إلى حدٍ بعيد، وكنت مقدرًا له ذلك، حيث كان سروري مضاعفًا لتمكني من زيارته في موطنه، وإذ نحن قد توقفنا وترجلنا على حافة نهير صغير لكنه سريع الجريان، يعترض السهل ويتعرج بين بساتين النخل والتجمعات السكنية، هبط علينا الشيخ شامس من قلعته على رأس موكب طويل من قومه، ورحب بي وبالسيد ناصر ترحيبًا حارًا، وبخفة ظل وفكاهة غير

(٤٠) دغمر أو ضغمر: وهي إحدى قرى منطقة حطاط.

معهودتين بين شيوخ العرب، الجادين والوقورين عادة، وضع يديه فوق حلقومي وصرح بأنه سيخنقني إن لم أعده - في ذلك الزمان والمكان - بقضاء يوم معه وفي ضيافته، ولم يكن هناك خلاف بخصوص هذه المسألة، وبعد أن حملني رجاله عبر النهر، صحبت الشيخ سيرًا على الأقدام على الربوة، وكان معنا السيد ناصر وخلفنا مجموعة كبيرة من العرب في طريقنا إلى القلعة، وعندما اقتربنا منها - وتكريمًا لنا - تم إطلاق قذيفة وزنها ١٢ رطلاً، من المدفع القديم المثبت على أرضية القلعة وأمام مدخلها الرئيس، وبذلك كان الخبر قد شاع في تلك اللحظة في مناطق التلال المحيطة، ومن هذا المدخل وفي درجة أكثر ارتفاعًا من سقف القلعة، كان المشهد فائق الجمال، وكانت المدينة قائمة على سهل دائري صغير، والتلال المنخفضة الارتفاع تحيط بذلك السُهيل، بقممها القاتمة المرتفعة والجبال التي قد حجبت رؤيتها من ناحية البحر، كما أنها كانت بمثابة حصن طبيعي يمنح الإحساس بتوافر الأمن والسلام، وكان الجزء السفلي من الوادي مأهولاً بالسكان والحدائق والمزارع، بينما كانت القلعة المربعة الشكل والبالغة الأهمية لتلك المنطقة، تقبع في مكان مرتفع على الجانب الشرقي ورؤيتها تمنح المرء شعورًا مؤثرًا.

وبعد ذلك صحبنا الشيخ شامس إلى صالة الاستقبال، حيث جلسنا لنتحدث، بينما كان يتم تحميص القهوة وطحنها تمهيدًا لإعدادها في الجانب الآخر من الغُرفة، ولم يكن ما بداخل الغرفة متجانسًا مع مظهرها الخارجي الموحي بالفخامة، حيث كان بها القليل من الأثاث ولوازم الزينة، ولم تكن مريحة إلى حد كبير، وكما علمنا سابقًا، فإن الكراسي وأطقم الجلوس والأثاث ليست متوافرة في مساكن الشيوخ العرب في عُمان، حيث إن العُماني العربي هو شخص بسيط في شخصيته وبسيط في سلوكه اليومي، ويخلو من الخيلاء، ومتطلباته قليلة، ومهما كان ثريًا فإنه لا يركن إلى الخمول



الذي هو عادة ما يكون ملازمًا للترف، كما أنه لا يشغل نفسه بتجميع الكماليات التي هو في غِنى عنها. وحتى مساكن النساء عادة ما تكون جرداء وخالية من الكماليات، وقد تشتمل على قطعة سجاد وصندوق للملابس وبعض الأشياء البسيطة اللازمة للاستخدامات المنزلية، عمومًا، كان الشيخ الزعيم في غاية اللُّطف، وأكرم وفادتنا إلى أقصى حدٍ ممكن.

وقد أخبرني الشيخ، بأن الناحية الشمالية الغربية من سَدّ وادي ضيقة تُدعى جبل نوايه، وبالناحية الجنوبية الشرقية يوجد جبل الناب، وإنّ بني نوي وبني ناب، هما قبيلتان من القبائل الرعوية التي تتخذ من رُبا هذه التلال مسكنًا، كما تعيش على تربية قطعان الماعز والأغنام، وربما يكون هؤلاء الرعاة خليطًا من العرب وسكان المنطقة الأقدمين، فهم بمثابة أهم الأتباع في وقت الحرب ضد القبائل المقيمة في الجوار بصفتهم يشكلون جزءها البدوي.

لقد أسرتني منطقة مزارع بجمالها الأخّاذ، الذي تبدى لنا في البساتين الخصبة والحدائق الغنّاء وخرير المياه في الجداول، كل ذلك جعل من تلك المنطقة مكانًا مدهشًا وجذابًا، وكدت أن أحسد الشيخ شامس على إقامته في منطقة رائعة كهذه، ونظرًا لأن المنطقة محصورة بين التلال، فإنني أتوقع أن تكون شديدة الحرارة في فصل الصيف.

في أدنى المدينة يوجد مجرى مائي مُعلق على خمس قناطر، كان قد تم بناؤه منذ سنوات عِدة خلت، بغرض نقل المياه من المجرى إلى الأراضي القريبة بقصد ريّ المزروعات، كما يوجد وادٍ ضيق يُدعى وادي غابة، وقد سمي باسم القرية الكبيرة التي يمر بها، وهو يمر بوادي ضيقة خلف منطقة مزراع. وتحت الصخور العالية وإلى ناحية الجنوب الشرقي من منطقة الحيل توجد منطقتا ولجات وسنت، والأخيرة تابعة لقبيلة السيابيين.

تمكنّا من المرور عبر وادي ضيقة المُرعب دون أن تجرفنا السيول في طريقها وتغرقنا، فقد نجونا في الوقت المناسب بلحظات؛ وذلك لأن السحب المتراكمة فوق رؤوسنا منذ صباح الأمس بدأت الآن تمطر بماء منهمر، وهبت عاصفة رعدية على التلال والأودية، وهبت عاصفة رعدية على التلال والأودية. تواصلت الأمطار طيلة فترة الظهيرة، وقد رحّب بها العرب أيّما ترحيب، وقد استبشروا بمقدمنا خيرًا، فالعرب يبتهجون لسقوط المطر؛ لأنه مقدم خير للزراعة ومن ثم على الحياة.

وعندما عزمنا في اليوم التالي على مغادرة قرية مزارع، فإنهم وكعادة العرب ودعونا بمظاهر الود نفسها، مثلما كانت الحال لدى استقبالهم لنا، وبعد أن استأذنا مضيفينا للانصراف، امتطينا جمالنا في وجود كل سكان المنطقة، والمسافة تتراوح ما بين ٥ إلى ٦ أميال، كان طريقنا قد أوصلنا إلى سفح الوادي المعروف باسم وادي ضيقة والذي يسمى في هذه المنطقة باسم وادي الحيل.

أما جوانب الوادي الواقعة بالقرب من مزارع فيبلغ ارتفاعها حوالي ١٠٠٠ قدم وهي رأسية، لكن ذلك الارتفاع يتناقص تدريجيًا، كما أن الوادي يتسع كلما توجهنا ناحية البحر، وعلى امتداد الجانب الأيسر، ويوجد فلج مبني بصورة جيدة، وهو مزود بقنوات رأسية تستخدم لرفع المياه من حين لآخر، وقد تم بناؤه مؤخرًا كبديل للفلج السابق الذي كان الحكام اليعاربة قد شيدوه قبل قرنين من الزمان، وقد أصبح الآن متهالكًا، وبعد مسافة قصيرة بدأ الفلج يتجه شمالاً لنقل المياه إلى الحدائق والبساتين بمنطقة حيل الغاف[٤١].

(٤١) إحدى قرى المنطقة الشرقية، وتقع بالقرب من قريات، وهي قرية مزدهرة عدد منازلها حوالي ٦٠ منزلاً، وتقع في الطرف الغربي لوادي الطائين في مكان على بعد سبعة أميال عن الساحل. لوريمر: الجغرافي، ج٢، ص ٧٧٢. وانظر: المخطوطة العمانية لابن رزيق ص ٤٦٢.



وبعد وصولنا إلى المستوطنة، وجدنا في انتظارنا السيد هلال بن سعيد بن حمد وأخويه، وقد اصطحبونا إلى مبنى مكوّن من حجرة استقبال وحيدة لكنها واسعة ومشيدة في وسط حديقة جميلة، وهنالك جلسنا وخلدنا للراحة لساعات عدة، حيث استمتعنا بعبير الزهور والجو اللطيف بهذه المنطقة الصحية.

يقال بأن منطقة حيل الغاف أنشأها السيد خلفان البوسعيدي(٤٢)، وهو أحد رجال عُمان البارزين، وذلك في أوائل هذا القرن، وعندما كان يتولى منصب الوالي أو حاكم تلك المدينة، أدى دورًا مشهودًا في توثيق أواصر الصداقة بين الإنجليز وحكومة مسقط.

وقبل أن يتم اختيار هذه المنطقة مكانًا للسُكنى والزراعة من قبل السيد خلفان وعائلته، كانت منطقة حيل الغاف مجرد رقعة أرض مرتفعة ومحاطة جزئيًا بالوادي ومغطاة بمجموعة كبيرة من أشجار الغاف، وذلك هو سبب تسميتها باسمها الحالي، كان قد تم شراء الأرض من قبيلة بني بطاش الذين ما يزالون يحتفظون بجزء فيها، وما زالوا يبسطون حمايتهم على المنطقة، ولقد اهتمت بها عائلة البوسعيد، فأحسنت إدارتها كما أنفقت بسخاء عليها؛ مما أسهم في ازدهار القرية وازدياد عدد السكان فيها ليصبح حوالي ١٢٠٠ نسمة.

وتشتمل القرية على عدد كبير من البساتين والمزارع، ومن منتجاتها يتم تزويد مسقط وغيرها من الأسواق بكميات كبيرة من الفواكه والخضروات، والعرب شغوفون بزراعة الزهور وإنتاجها كما أنهم شغوفون بالعطور النفّاذة، ويكونون في غاية السرور عندما يحصلون عليها من بساتينهم. إن كمية وتنوع أشجار الفاكهة والزهور المستوردة خلال مختلف الأزمان من بلاد فارس والهند إلى عُمان، هو دليل على استحسان العرب لهذه النباتات، وللاهتمام الذي يبذلونه

(٤٢) هو سعيد بن خلفان بن سعيد البوسعيدي. انظر الفتح المبين في سيرة البوسعيديين، ابن رزيق ص ٤٦١.

تجاهها، لذا، فإن البساتين أو الحدائق تستحوذ على معظم وقت العائلات الإرستقراطية في منطقة الحيل، الذين يبدو أنهم يستمتعون غاية الاستمتاع برعاية زهورهم وأشجار الياسمين، كما يستمتعون بقضاء اليوم بكامله تحت ظلال مساكنهم الصيفية المعروفة لديهم باسم السّبلات. أما أجمل المظاهر الجمالية في نطاق منطقة الحيل، فهو الطريق الواسع المشجر بأشجار المانجو الضخمة الذي يمتد لمسافة ميلين.

قريات:

في تمام الساعة الرابعة مساءً بدأنا رحلتنا إلى منطقة قريات، حيث كنت أرغب في قضاء الليل، وفي الطريق واجهتنا عاصفة رعدية أخرى ووابل من المطر، وقد غمرنا بالمياه تمامًا، وكان العرب مستبشرين بهطول المطر لكونه مصدر خير لأرضهم الجافة والعطشى، وكانت صيحات استحسانهم كفيلة بمضايقتنا، وتعجلنا في ركوب الجمال للنجاة من غزارة الأمطار، فقطعنا المسافة بين الحيل وقريات وقدرها ١٢ ميلاً في ساعة ونصف.

واتخذت مقري في البيت الكبير للسيد حمد بن خلفان، المحصن ببرجين، وهنا بقيت حبيس المنزل طيلة اليوم التالي بسبب المطر المنهمر بغزارة وبلا انقطاع وكان الأهالي فرحين به، ولكن ذلك إلى حد ما كان مزعجًا لي، حيث كنت قد قمت بزيارة قريات في مناسبات عدة سابقة، وكنت أعرفها جيدًا بحيث لم أكن أرغب في معرفة المزيد عنها، هذه المدينة تقع على بُعد ٣١ ميلاً جنوب شرق مسقط، وعلى بُعد ميل واحد من الشاطئ، على السهل الساحلي الكائن بين السلسلة الجبلية الكبرى والبحر. بذلك السهل حوالي اثنتي عشرة قرية، ويمر به واديان، وهو بمثابة منطقة مراع شاسعة، وفي العصور الماضية كانت تربّى فيها أفضل الخيول، ومنّ ثم تصديرها من قريات بأعداد كبيرة إلى سورات لتلبية الطلب بأسواق الهند، وربما كان السبب الأساسي في ركود هذه التجارة هو الخلافات



الداخلية، فقد كسدت هذه التجارة ثم توقفت تمامًا قبل قرنين من الزمان، ويبلغ عدد السكان في قريات ٣٠٠٠ نسمة، وفيها سوق جيد به العديد من المتاجر المملوكة للتجار الهندوس، الذين يقومون بتزويد المناطق السكنية في وادي الطائين والمناطق الجبلية الواقعة إلى الشرق من مسقط بالبضائع المستوردة، حيث إن وادي الطائين هو الطريق الأساسي الذي تمر عبره القوافل بين قريات والمناطق الداخلية، هذا الميناء ومدينة صور(٤٣) وقرطاج هما رديفان للمدن المعروفة باسم قرطاج وصور، اللتين يعرف سكانهما باسم الفينيقيين(٤٤) واللتين كانت لهما منذ عهد سيدنا سليمان أو قبل ذلك علاقات تجارية مع سكان الساحل الجنوبي للجزيرة العربية، وهما يحتويان على قدر كبير من القدم، وما زالتا تحتفظان بأسمائهما القديمة إلى وقتنا الحاضر.

إن موقعهما المناسب والمهم على الساحل العربي المواجه للهند لابد وأنه قد أدى إلى احتلالهما بصفتهما مركزين تجاريين من قبل تجار ذلك الزمان الذين كانوا مشتغلين بالتبادل التجاري في السلع بين الشرق والغرب، تمامًا مثلما حدث لقلهات(٤٥) وخورجراما(٤٦).

---

(٤٣) سهل متسع يشمل جزءًا من الأحواض العليا لأودية عُدي والميح ومجلاص وجزءًا من مجرى وادي صيرين. لوريمر: الجغرافي، ج٢، ص ٨٦٤. وتعد صور أهم مدن الحجر الشرقي، ولها شهرة تاريخية في بناء السفن، فقد كانت أحواض بناء السفن في صور ذات شهرة كبيرة في المحيط الهندي، كما كانت معروفة في القرن الثالث عشر للهجرة/ التاسع عشر الميلادي بأنها أنشط مراكز بناء السفن في الجزيرة العربية كلها. وترجع شهرة صور في بناء السفن إلى أقدم العصور، وربما يعود هذا الأمر إلى عصر الفينيقيين الذين كانت لهم مدينة على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط تحمل الاسم نفسه، مما يشير إلى أن الفينيقيين ربما جاؤوا إلى هذه المنطقة من عمان وأن أجدادهم هم الذين بنوا السفن وجابوا البحار.

(٤٤) كان للفينيقين مدينة على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط تحمل الاسم نفسه، وتشتهر ببناء السفن.

(٤٥) من المعروف أن الفينيقين سيطروا لفترة طويلة على الشواطئ العمانية والخليج بصفة عامة.

(٤٦) خور جراما (يراما) يقع في شمالي رأس الحد، وهو من الخيران المهمة، حيث تحتمي فيه السفن عند مواجهة الأخطار في البحر، وله مدخل ضيق وخطير لمن =

أشرقت شمس يوم ١٩ (فبراير ١٨٨٤م/٢٢ ربيع الثاني ١٣٠١هـ) في جو صحو، وبعد قليل وصلنا إلى ضواحي منطقة قريات بعد أن عبرنا وادي مجلاص هبوطًا، الذي هو بمثابة وادٍ عميق وضيق يمتد في صورة متعرجة في اتجاه جنوب غرب قرية السواقم، ومن هناك صحبنا شيخ قريات على ظهر فرسه في الطريق.

السواقم:

والسواقم قرية صغيرة وجميلة، وتشكل مثلثًا مع منطقتي جبل الغاف وقريات، وتبعد عن الأخيرة بمقدار تسعة أميال، وهنا، وفي وسط أشجار النخيل الرائعة منزل كبير كان قد بناه السيد سعيد بن خلفان، الذي كان يستخدم هذا المسكن الجميل المنعزل بمثابة منزله الريفي في فصل الصيف، وبعد أن توقفنا في السواقم لمدة ساعة تقريبًا، غادرنا وادي مجلاص متجهين غربًا وعبر المنطقة الوعرة المعزولة، وغير المأهولة، كانت تصادفنا بعض كتل الصخور غير المتماسكة، وروابي الحجر الجيري التي كانت تبدو على صورة انحدار تدريجي نحو الجنوب إلى حد كبير، ثم تتبعنا تعرج الطريق واستدرنا حول المجاري المائية التي كانت تحفها أشجار السنط المتقزمة، والشجيرات الشائكة، والأعشاب البرية من الجانبين.

في ذلك الطريق صادفتنا قرى عدة، منها قرية هيزر Heither ومنثيرة Muntheriya وغيرهما، وهي تتبع قبيلة بني وهيب وبني حسن، ثم شاهدنا مدينة سرايا Sarraya، في منتصف طريقنا إلى مسقط، وهي مدينة صغيرة يعمل سكانها في حرفة نسيج الأقمشة،

= لا يجيد الدخول إليه، وهو خور واسع استخدمته بريطانيا في الحرب العالمية الأولى بعد عقد اتفاقية مع سلاطين عمان. انظر: سعيد بن محمد بن سعيد الهاشمي: القيمة العلمية لجولات القنصل البريطاني س. ب. مايلز في سلطنة عمان ١٨٧٤-١٨٨٥م، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ، الرياض، ٢/٧٢٦.



والمدينة تقع على وادٍ ضيق وافر المياه وخصب، يقع على يسارنا بمقدار ٦ أو ٧ أميال.

وفي المساء وصلنا إلى قرية الحاجر، وهي تقع على وادي حطاط، حيث قضينا الليلة فيها، وتعد هذه القرية مستوطنة جديدة نسبيًا، ففي زيارتي الأولى للمنطقة عام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ)، كان يتم تجهيز الأرض تمهيدًا لزراعة النخيل التي تم جلبها من البصرة، كما قام السيد هلال بن أحمد بتصميم فلج وإنشائه بطول نصف ميل، وكان قد اشترى الينبوع من بني وهيب الذين يملكونه، وعلى الرغم من توافر المياه، وخصوبة التربة، فإن المزروعات لم تكن مزدهرة كما هو متوقع، ويبدو أن ذلك الفلج قد تعرض لأضرار بالغة بسبب الفيضانات بعد اكتماله بقليل؛ مما استوجب إعادة بنائه، وهنالك أسباب أخرى قد أسهمت أيضًا في إعاقة نمو تلك المنطقة، ولكن مثلما هي الحال بالنسبة لمنطقة بيرين التي أشرنا إليها سابقًا، فإنها ما زالت صامدة، وما زالت تدر أرباحًا طفيفة لصاحبها، وفي هذه المنطقة، زراعة التبغ هي إحدى الأنشطة الرئيسة حيث يتم تسويق التبغ المنتج، في أسواق مسقط.

وادي حطاط:

يمتد وادي حطاط(٤٧)، الذي نحن فيه الآن تحت أسمائه المتعددة: وادي قحزة، ووادي الميح، يمتد من جبل قحزة إلى إيتي، حيث يقابله وادي عمدة والعديد من الأودية الضيقة الأخرى.

في سفح وادي قحزة تتراجع التلال نوعًا ما، ليتكون سهل صغير بطول ٩ أو ١٠ أميال يدعى سيح حطاط، وكان مسرحًا للعديد من المعارك الدموية في تاريخ عُمان، وفيه العديد من القرى والكثير من

(٤٧) خليج صغير يخترق ساحل عمان، ويقع على بعد اثني عشر ميلاً ونصف ميل شرقي خليج صور، وعلى بعد أربعة أميال من رأس الحد. لوريمر: الجغرافي، ج٣، ص ١١١٧.

المزارع، وتقطنه خمس قبائل، هي قبائل بني وهيب[٤٨]، وبني حسن، وبني جابر، وبني بطاش، وقبيلة المعشري[٤٩].

إن السلسلة الجبلية إلى يسارنا، والتي على جانبها يجري وادي الطائين، وتسميها قبائل الرحبيين والسيابيين بالاسم العام الجبل الأبيض، لا تعرف بهذا الاسم عند بني وهيب، والذين عجزوا فعلاً عن إعطائي أي تسمية لها أخبروني بتسميتهم لوادي الميح، الذي يمتد في الحاجر إلى البحر عند منطقة إيتي[٥٠]، وهو وادٍ ضيق يمتد لحوالي تسعة أميال، له سفح حصوي وعر، وفيه مجرى مائي سريع التدفق، وقدر هائل من أشجار الدّفلي العطرة، والوادي بصفة عامة يبدو قاحلاً لكن به القليل من الرقع الخضراء، وبعض القرى الصغيرة مثل قرية علاية المزارع، حيث البساتين المسوّرة بالجدران أو الحجارة على جوانبه المنشأة لحمايتها من أضرار الفيضانات، ثم قرية سفالة المزاع ثم قرية رجعة، وأخيرًا قرية إيتي.

إن الطبيعة الجيولوجية لوادي حطاط لافتة للنظر ومثيرة للاهتمام، فهي من ناحية تُبين طبيعة الصخور الرسوبية وتكوينها، والتي يبدو أنها تشكل السلسلة الجبلية العظمى في عُمان، ومن ناحية أخرى، تشتمل على الصخور المتحوّلة أو النارية التي تشكل المجموعة القائمة لتلال مسقط، ويتكون سطح الوادي كله من حصى الحجر الجيري، وتوجد تحته طبقة مكونة من خليط من الحصى والصخور، وتتباين التلال في ألوانها، والطبقات الجيولوجية توجد على صور عدة وبمختلف الزوايا.

(٤٨) بنو وهيب (آل وهيبة): قبيلة هناوية أباضية من أكبر قبائل البدو، وتنتشر في جميع بقاع الداخل من عمان والساحل الجنوبي: ص ١٦٥.

(٤٩) فرع من قبيلة بني بطاش.

(٥٠) تقع على بعد ميل واحد للداخل على الشاطئ الأيمن لوادي الميح عند اتصاله بوادي الحلو تمامًا.



وفي سيح حطاط توجد العديد من الأعمدة الطبيعية التي تكونت بفعل التعرية والتي تشكل مشهدا طبيعيا جديرًا بالمشاهدة، ويتراوح ارتفاعها ما بين ٢٥ و ٣٠ قدمًا، وهي متفرقة نوعًا ما.

يدلّ المظهر العام لهذا السهل على أنه كان في العصور السابقة بمثابة حوض مائي يستقبل فائض مياه التلال المحيطة التي تتجمع في صورة بحيرة، ولقد تسببت التعرية المائية المستمرة في حفر مجرى مائي خلال وادي الميح ووادي عِدَيّ في طريقه إلى البحر بجوار منطقة الحاجر، كانت صخور الحجر الجيري مُحمّرة نوعًا ما، ويبدو أنها كانت مختلطة بالغرين الأزرق. وفي وادي الميح، تُظهر الجوانب الصخرية وجود التأثيرات البركانية بصورة جلية تمامًا، فالصخور كلها تبدو غير مستقرة ومجعّدة، متخذة صورة طبقات أحيانًا وأقواس أحيانًا أخرى، ولقد شاهدنا كتل الحجر الجيري الضخمة في مشهد جيولوجي فريد.

وفي صباح اليوم التالي، غادرنا منطقة الحاجر، وواصلنا طريقنا أحيانًا في اتجاه الشمال الغربي، وأحيانًا أخرى في اتجاه الشمال، وبعد أن عبرنا منطقة بيرين، وصلنا فجأة إلى الممر الضيق في وادي عِدَيّ، ومنه اتجهنا عبر سيح الحرمل[٥١]، وبعدها بقليل وصلنا إلى مسقط بعد رحلة لم تخل من المتعة والإثارة والمشقة والمعرفة.

(٥١) مكان بقرية روي بمنطقة مسقط.